مذكرات طه حسين

منشورات دار الاداب ـ بيروت

***

اوشك الدكتور طه حسين عميد الادب العربي على بلوغ الثمانين من عمره الذي امضاه دارسا باحثا واديبا منتجا ومربيا للاجيال الطالعة معنيا برفد افهامها بالجديد المبتكر والقديم الاصيل من معطيات الفكر والادب والثقافة في عموم ضروبها ومتنوع الوانها .

ان ما انهد للاسهام في مجالاته والعمل في ميادينه ، من تأليف وتدريس ونقد ، هذا المكفوف ، لتنكص دونه همم افراد مجتمعين من المبصرين وتعيا به ممكناتهم وطاقاتهم ، لكنه الجلد الشاق والصبر الطويل والعزم المكين هي جماع العدات التي تسلح بها ومكنته من الانتصار على عقبات الحياة وتخطي ازماتها ومجاوزة مشقاتها واهوالها ، فهو بدع في ضروب تحصيله واكتسابه معارفه والمامه الواسع باسرار بعض اللغات الاجنبية ومن بينها واحدة قديمة تكاد تغدو اليوم في عداد المهجور والملوي عنه من موروثات الشعوب والاجناس المنقرضة او التي اوشكت على الانقراض والانعدام والتلاشي ، اعني اللغة اللاتينية ، بالاضافة الى احاطته الشاملة بدقائق اللغة العربية . وهو بدع ايضا في عصاميته التي تحولت به من صبي ناشىء في الريف المصري الى طالب ينهل العلم في رحاب الجامع الازهر فجامعة القاهرة وجامعة السوربون فى قلب باريس ، مغالبا في هذه الحالات كلها ما يصادفه من عقبات الطريق ويكمن في شعابه ومفاوزه من الارزاء والمحن والخطوب والكوارث . واخيرا هو بدع متفرد بهذا الاسلوب المشحوذ المات الى الاصالة والاشراق والعذوبة والجمال ، باوثق الاسباب والصلات .

ان طه حسين في عصاميته وفناء جهده وغزارة علمه واصالة ادبه وتدفق اسلوبه وفي عرفانه بدخائل النفس الانسانية وسبره اغوارها العميقة واكتناهه بواعث ما تنطبع به وتنم عنه من اطوار السلوك العجيب واوجه التصرف المستغرب في كثير من الاحيان ، حتى لقد نفذ الى تصوير اعمق ما يخالج الانسان من نوازع الحب والصفاء ، والرضى واللين ، ووفق كذلك الى تجسيد ما يساوره ويعتريه من عواطف البغض والمقت والنفور والموجدة ، خلل كثير من نتاجاته المتعددة على اتم ما يقتضيه التصوير التجسيد من الاحكام والصدق والفني بالدلالة الواقعية والمعاناة المستفيدة او المتمرسة المجربة . اقول ان طه حسين في كل هذا صنيعة الذكاء المشبوب والنبوغ المتوقد والفطرة الانسانية الخلاقة المطبوعة على المثابرة والعمل بلا كلل او توان .

ومذكراته التي صدرت مؤخرا تجيء اليوم محتفلة بعصارة جديدة من خبراته وتجاربه وتمرسه بمغالبة الاحداث ومواجهة الخطوب ولقاء الناس الذي لا يحوج هو اخر دراسة او تعلما ، النجح فيه وتوقي ما يستتبعه من المتاعب والاهوال في حالة الاخفاق والفشل ، انما هو فن يكتسب بالممارسة ويقوى بالدربة ويترسخ في النفس بالاستفادة من التجارب السابقة في حالة امعان النظر فيها ومعاودتها بالتذكر والرجوع عليها بالادكار وايلائها بالعناية والملاحظة النافذة ، وهي بعد هذا تتمة او استئناف لما ازجاه من خطراته وذكرياته في قصتيه الرائعتين : الايام واديب .

نماذج بشرية

عبر هاته الذكريات الحبيبة يطل علينا الدكتور طه حسين بتصويره الشائق للكثير من الطبائع والنماذج البشرية الطريفة الحرية بالالتفات والنظر والنفاذ الى اطوارها ومسالكها ، فمن بينها المحسن الذي يجود بالعطاء والاحسان ثم يمن بما اعطى واحسن متعجلا استرداده واسترجاعه، كهذا الشقيق الاكبر الذي راعه في حال ان يضع اخوه الاعمى على عينه غطاء زجاجيا اسود يغطي به اجفانه فيستهون ثمنه ويهديه اخر ذهبيا يخاله اليق بمكانه وارعن لمنزله بين من يخالط من الاصدقاء والخلان ، ثم ينكفىء عليه بعد مدة مطالبا اياه أن يرد عليه غطاءه الذهبي لحاجته الماسة اليه ، فما امض ما ساوره من الارم والغيظ وخالجه من الكرب والضيق وملك نفسه عليه حزنا واشفاقا ، لولا انه يتسلى عن الرزيئة المؤسفة ويلفي عزاء في تصدي رجل غريب للاعلان عن استعداده للقيام بنفقته حين تطلبته الجامعة المصرية بالرجوع الى مصر وتوقفت عن امداده بالمال بالنظر لظروف الحرب .

ومن النماذج الحبيبة المتجردة من الانانية والحسد والمغالبة في الادلال بروح التضحية والايثار وانكار الذات شخصية صديقه الدكتور صبري السوربوني الذي فشل في اجتياز امتحان الليسانس لقصوره وضعفه في فهم النص اللاتيني المطالب بترجمته الى الفرنسية ، فما القى عليه نظرة خاطفة ، حتى طواه وقدم الى الممتحنين ورقة بيضاء ناصعة وغادر المكان ضاحكا منشدا بيتا من الشعر اللاتيني القديم يصور اليأس والقنوط ، لكنه لم يكف عن مسعاه ويقلع عنه بصورة نهائية ، انما يوالي تحصيله وتزوده من اللغة اللاتينية حتى اوفى على الغاية من الفهم والاتقان وتقدم للامتحان مجددا واتيح له الفوز والنجاح، هذا السوربوني لم يستبد به الجزع او يتملكه الروع والشعور بالخذلان، حين اخفق في الشوط الاول ، انما غمرته الفرحة وغلبه الحبور حين نجح صديقه طه حسين في نفس الامتحان ، « فقد اقبل ذات مساء فرحا يكاد يخرجه الفرح عن طوره مكدودا يقطع الاعياء نفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى ، ولشدة ما اسرع في صعود السلم الى بيت الفتى في الطبقة السادسة ، فلم يكد يفتح له الباب حتى اعلن لمن فتحه ان زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ولم يدخل وانما رجع ادراجه لم يرد ان يستريح » ، فكان رائعا حقا ان يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة املك له واشد استئثارا به من اخفاقه هو في الامتحان .

الصوت العذب

والصوت العذب هو صوت الزوجة البرة الوفية ، شريكة الحياة وصديقة العمر التي قاسمته السراء والضراء وشاطرته في المسرات والاحزان ، وتحملت واياه ايام العسر الشديد والمشقة الطائلة والصبر على المكروه ، وهي التي بفضلها قيض له ان يطلع على امهات الكتب والمراجع من تراث اللاتين واليونان والفرنسيين متدارسا اياها متفهما لها محيطا بمدخولاتها فقد امضت معه شطري العمر تقرأ له بصوتها العذب النبرة الجميل الوقع الواضح النطق ، يعيرها هو الاخر سمعه مصغيا لها متشربا ما تلهج به من ثقافات الشعوب الحية ومعارفها المتباينة ومعطياتها الخصبة ، وتتكفل كذلك بتفسير ما يشق عليه فهمه ويتعذر استيعابه من فحاوي لغة قومها حتى استقام لسانه وقوي امكانه من تلكم اللغة العريقة ، وكذا كانت بالنسبة له الملاك العجيب كما ذكر غير مرة الذي بدل بؤسه نعيما وترحه فرحا وشقاءه سعادة ويأسه املا وظلام حياته الداجي نورا ساطعا وضياء وهاجا ، واستحالت حيرته وانشغال فكره وشعوره بالغربة وسط اولاء الناس ، حتى ما يكاد يألفهم ويأنس بهم ، فقد استبدت به الظنون والاوهام واعتورته الشكوك والهواجس ، على غرار ما استغرق فيه وانجر اليه صنوه القديم ابو العلاء فيلسوف المعرة ، استحال هذا كله بقدرة قادر وبفضل هذا الملاك الملم ذي الصوت المشفق الحنون تعلقا بالحياة واقبالا عليها وزاده ذلك ثقة بنفسه وايمانا بجدارتها للتحصيل واستعدادها للانتفاع بالعلم والسعي في سبيل خدمة الجماعات من حوله به .

ان الصفحات التي اتى فيها الدكتور طه حسين على الاسهاب في سر ذكرياته الاولى عن الزوجة الوفية البرة منذ مبدأ تعرفه بها وتوشج الاسباب بينهما حتى ازماعه على البناء بها والزواج منها ، وما صاحب ذلك في البداية من امتناعها وتأبيها واعتذارها له عن رد هذا الطلب

الملح فقبولها به واستجابتها له في النهاية ، لتعد من اروع ما كتب في باب تصوير مشاعر الالتياع وعواطف الحرمان وخلجات الاحساس بلذة الحب تلوق ثماره واجتناء طيباته .

وان ينس الدكتور طه حسين شيئا فلا ينس يوم تقديمه استقالته من التدريس في الجامعة ، عقب انخراطه في هيئتها التدريسية بمدة وجيزة بسبب امتناعها عن تلبية طلبه في مضاعفة مرتبه للانفاق على مصاحب له ، يعينه في التحضير ويقوده الى حجرات الدرس ، فرد طلبه وانبىء من بعد بعزم الجامعة على مطالبته بتسديد ما انفقته في سبيل استكمال دراسته في باريس من النفقات الباهظة ، فما كان من الزوجة الا ان الحت عليه بالرجوع عن الاستقالة والاعتذار عنها في حال من الابقاء على ماء الوجه والاحتفاظ بالكرامة ، والقت في روعه انه انجر للوقوع في الشطط وتنكب السداد والايغال في العماية والسرع والغرور ، وخير له ان يعي ان الانسان يخطىء احيانا ويصيب احيانا .

الفلسفة المفسدة

من بين هاته الذكريات الحلوة التي يفيض الدكتور طه حسين في سردها واستقصاء اطرافها واستجماع شتاتها والتنسيق بينها ، صلاته باساتيذه القدامى من علماء الازهر الشريف واقطاب الاستشراق من الفرنسيين والايطاليين ، وداعية الارسطالية في مصر المرحوم لطفي السيد صاحب الجريدة التي فتحت ذراعيها لاحتضان مقالات الكاتب الفتي حيث حظي بتوجيه المعلم الرائد واحتفائه به وحدبه عليه وتسديد خطوه وتوجيهه في التدرب على العطاء الادبي ، كانت اياما لا تخلو في بعضها او في الكثير منها من الانجرار للعثرات والكبوات والوقوع في حماة الاخطاء والاغلاط ، كان تستغل غرارته وسذاجته وطيبته في عهود الطلب والتحصيل ، بل ونزوعه للشهرة وتوقه لاستطارة الصيت وذيوع الذكر ، فقد يسخره المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، لكتابة الفصول الطوال المتتابعة في نقد نظرات المنفلوطي وجره ذلك الى شيء من الفلظة في القول والمخاشنة في الخطاب وتجاوز حدود النقد الموضوعي المقبول الى الشتم المنكر والسباب الغليظ ، وما يزال يحس بالخجالة ويتملكه الضيق والشعور بالندم والاسف ، كلما خطرت في باله مناسبة كتابة تلك الفصول ، ومن قبيل تلكم السقطات والهفوات، جنوحه ذات يوم الى الطعن في تضاعيف مقال نشر له في الجريدة ، الى الطعن في نسب واحد من اصدقائه ، دون ان يفطن الى قباحة هذا المأثم وبشاعته ، ومناسبة كتابة المقال ذاك ، تنحصر في وقوع خصام حول سؤال من اسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الادب ، فكان ممن شارك في هذا اللدد واحد من زملائه الازهريين ينتمي الى اسرة كبيرة يباهي دوما بانتسابه اليها ، ونزع طه حسين الى اماطة اللثام عن حقيقة الانتماء ذاك ، فلهج صراحة بان اب الزميل كان من عتقاء تلك الاسرة ، دون ان يستهدف ايذاءه وايلامه والانتقاص منه ، انما « اعجبه هذا التعريض فاستجاب له ولم يراجع نفسه الا حين قرأه مطبوعا ، هنالك اسقط في يده ولم يرض زميله الا بعد جهد وعناء وقد رضي الزميل وصفح ولكن الفتى لم ينس هذا الاثم قط وما اكثر ما ازدرىء نفسه وحاول ان ياخذها بالا تضع كلمة في مقال حتى تفكر وتقدر وتتجنب الايذاء ما وجدت الى ذلك سبيلا » .

ويتردد في اكثر من صفحة اسم الدكتور منصور فهمي مقرونا بالاعجاب والاكبار ، ومنصور فهمي هو ذلكم الجامعي الذي سبق الدكتور طه الى التماس التحصيل في جامعة باريس والظفر بمعونة الدولة او الجامعة المصرية ، لاستتمام هاته البغية ، ويبدو انه كان منطلقا من ايمانه بحرية الفكر في كتابة رسالة الدكتوراه ، فحامت حوله الريب واستهدف بالشبهات واخذ بمواضع التهم المرجفة والمغامز المتجنية ، فحين استدعى طه حسين خريج الجامعة المصرية لمقابلة السلطان حسين كامل قبيل سفره الى باريس ليزوده بتوجيهه وارشاده ، جوبه اثناء تلك المقابلة بتصدي حاكم مصر لتحذيره من دراسة الفلسفة لانها في ملته تفسد العقول وتفسد الذوق ايضا وراح السلطان يسرد على اسماعه حادثة استقبال الطلبة المصريين له في باريس وكلهم كانوا حاسري الرؤوس وفي ايديهم قلانسهم الا واحدا كان حاسر الراس كزملائه ولكنه لم يمسك قلنسوه انما يمسك طربوشا في يده ، وحين استفهم في امره انبىء انه منصور فهمي طالب الفلسفة الذي كان لزاما عليه ان لا ينزع طربوشه في حضرة السلطان لكنها الفلسفة افسدت عقله وذوقه وخلقه جميعا .

ويبدو ان رسالة الدكتور منصور فهمي التي لم يفصل حولها صاحب المذكرات كانت من الخطورة والاهمية بحيث اثارت في حينها من الضجيج والعجيج ما استهدف جراءه الى سخط الهيئات الرسمية واوساط الراي العام والاضطرار للاقامة خارج الوطن والابعاد عن الجامعة ، حتى اذن له في التدريس في اعقاب ثورة عام ١٩١٩ التي ترتب عليها من تحرر العقول والافهام ما بدد من سحائب الجهل والجمود ومن تحلل الافراد والجماعات من محدودية النظرة وضيق الافق ما راض الاميال المتزمتة على الانفتاح وتقديس حرية الفكر بل والكفاح في سبيل انتصارها ، لكن كان لسابقة الدكتور فهمي ابلغ الاثر في انفاذ قرار الجامعة المصرية بلزوم اطلاعها على الرسائل الجامعية التي يعدها المبعوثون الى الجامعة الباريسية قبيل عرضها على اساتذتهم المتحنين وشروعهم بمناقشتها والتلاحي حولها .

فلذات عبارية

عودنا الدكتور طه حسين خلل نتاجاته العديدة ، في التاريخ السياسي والاجتماعي والنقد الادبي والاعمال الروائية والقصصية والفصول المسهبة التي تنقل لنا نفثات الاحساس وخوالج الشعور والخواطر الذاتية في الحياة والاحياء ، حين تضيق نفسه بها وبهم وتزهد فيها وفيهم وتقنط من التاميل في استحصال الرغائب والظفر بالمطالب والامال منها على فرط رضى منهم دون ان يستهونوا ذلك او يغضوا عنه او يثقل على نفوسهم فيه او يمضهم الحزن جراءه ويسري الى نفوسهم هذا الشعور البغيض اللئيم اعني الحسد المؤرق لاجفانهم السالبهم الخدر والغمض النازع منهم الروح والجمام ، اقول عودنا الدكتور طه في كل تلكم النتاجات الرائعة ان يطالعنا بتعابيره البديعة وفلذاته المحكمات المائه الى الفصاحة والرواء والاسر والروعة والجمال والتشويق ، بامتن الاسباب والاواصر ، وفي كل مرة يطالعنا منها بالجديد المبتكر النابع من اعماق القلب والنفس والروح جميعا . وما اصدق قول صديقه المرحوم عباس محمود العقاد ، في معرض الحديث عن اسلوب طه حسين ، حيث سطر : انه « يتحدث ولا ينسى انه يكتب ويكتب ولا ينسى انه يتحدث ، واسلوبه الذي اختاره اوفق الاساليب لذلك جميعا واولها من نوعه في اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لاسلوب اخر في اللغات الاوروبية ، ولقد افاد باسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأي ولم تقنعهم المناقشة ، فراوا ان العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على اسلوب غير اسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع وراوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء ، هو ، لا كما يشاء القدماء فتنكتب وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة والفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء وذلك وحده فتح قدير » .

في فاتحة الفصل المعنون : استاذ جامعي بخمسة جنيهات ، يسطر الدكتور طه : « وكانت تلك الايام الطوال الثقال التي قضاها صاحبنا في القاهرة مروعا ملتاعا بعد ان حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد فقد اسلمته هذه الصدمة القاسية الى هم متصل ذاد عنه النوم فلم يكن يذوقه الا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير ، وقد بلغ منه الجهد غايته وانتهى به العناء الى اقصاه ، بعد ليل مسهد وفكر مشرد ونفس قلقة ، فقد عزمت كيف تنسل عن ماضيها ــ الثقيل ووقفت امام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه الى ما كتب لها من سعادة او شقاء » .

رجوت من القارىء العزيز ان يتمعن في ما تطالعه به تلكم القطعة

الرائعة من الاشعارات البديعة والتصوير الشائق والسحر الاخـاذ والوصف البارع لقلق الانسان وروعه وفزعه ، وهناء الطير ورغادتـه وحظوته بالروح والجمام ، من الاتعاب . ولعل مـن اروع اللوحات التصويرية التي استبانت في المذكرات ، الفصل الاخير المعنون : ايمان بالثورة ، حيث تنتهي مذكرات صاحب الايام بالسنوات الاولى من ايابه الى الوطن في اعقاب ثورة ١٩١٩ ، وكان المجتمع منقسما بيـن انصار سعد وانصار عدلي باشا ، وكان هو منحازا الـى جانب السلطـة ممثلة في شخص عدلي باشا ، الذي اخفق في التفاوض مع المحتلين، وراح انصاره واشياعه يفترضون المسوغات ويبتدعون المبررات ويتحلون المزاعم ، لاخفاقه وفشله في المفاوضة حول الجلاء ، من قبيل ان صاحبهم كان « ابيا كريما قد ثبت لهم فلم ينزل لهم عن حق الوطن ولم يقبـل منهم الدنية وعاد اشم مرفوع الراس » ، بينما يزعم اخصامه واضداده ومناوئوه ان ازدراءه الشعب وممثليه قد اضاع الاستقلال .

وما شان طه حسين بهذا اللدد المرجف والخصام الفظيع ؟!

لقد قفل من فرنسا مخيلا لنفسه ان الادباء والمفكرين هم قـادة الشعب ورسل العرفان وهداة الامة الى الخيـر والايمان والحقيقة ، وهم من سجاحة الخلق ورحابة الافق وذكاء العقـول والافهام ، بحيث لا تتحكم فيهم العصبيات الفلاذ او تستبيهم النوازع الضيقة والافـاق الذهنية المحدودة فتحبسهم في نطاقها وتدورهم في فلكها وتحتجزهـم في مجالها ، انما هم يرتفعون فوق احقاد الجماعات واوغارها ويسمون على ضغائنها وذحولها ، وهم بعد المسكون باعنـة التوجيه والرعي والارشاد ، لكن سرعان ما خاب الظن وجار المريد عـن القصد ونكص المحاول عن المسعى وقنط المعول من التماس الرجاء ابتغاء المامل ، واذا اولاء الادباء والمفكرون ، من قراء الاسفار والكتب الضخام وحملة الاقلام واليراعات بشر لا يختلفون عن عامة الناس في اجتراح الاخطاء وارتكاب المعاصي والولوغ في المأثم لهـم انحيازاتهم وتعصباتهم وتقلباتهـم واندفاعاتهم ، وكذا يرى طه حسين نفسه ذات يوم فـي محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلي وهو يصيح مع الصائحين : يحيـى عدلي باشا ! « وقد حمل العدليون صاحبهم على الاكتاف حتى وضعوه في سيارتـه ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم ، يخرجون من المحطة ، حتى تنهال عليهم اللعنات ويصب عليهم الاستهزاء صبا ثـم يقذفون بالحجـارة والعصي ويصاب صاحبنا ببعض الاذى ولولا ان رفيقه كان ماهرا لبقـا لتعرض لشر كثير ، ولكن رفيقه انعطف به الى حارة من الحارات ثـم نفذ به الى حيث امن الحصى والحجارة والشتم واعاده الـى داره موفورا مكدودا مع ذلك » .

ولك بعد هذا ان تضحك او تبكي .

تمنيت ان اتناول بالذكر مواضع اخرى ، من مذكرات استاذنا طـه حسين خاصة عرائضه المقدمة الى رئيس الجامعة المصرية قبيل الحرب العظمى ، بصدد طلبه الانتساب الى البعثة ، تلكم المواضع التي تقطر الما ومرارة تنسجر منها النفس تمزقا والتياعا وتعمر جراءه بالحـزن والاشفاق وتمتلىء مع ذلك ورغم ذلك بالاكبار والاعجاب ، بممكنات هذا الرائد الفذ والمصلح العظيم والاديب الخلاق ، رجوت ان ازجي فنونـا اخرى متنوعة من فلذاته العبارية ، لولا اني لا املك سبيل النفاذ الـى ذلك والفي الابواب بيني وبينه مغلقة موصدة ، ولا انتحل الذلك عاذرا او شافعا في التطويل والاسهاب واستحثاث القارىء واغرائـه بتداول الكتاب ، كما يعتمد ذلك ويتوسل به ويتوكل عليه كثير مـن المقصرين والعاجزين عن استكمال مباحثهم واستتمام مقالاتهم ، خطـة ابتدعها السلف وترسمها الخلف وعكازة يتوكأ عليها مقطوعو الارجل لكنها لا تقيل من عثار او تنهض من كبوة .

لكن خير ما اختتم به هذا الاستعراض السريع الخاطف العجلان لمذكرات استاذنا طه حسين ، القول انه صاحب طريقة فـي الاسلوب ليس لها مقلد او مجار وحتى مقترب منها على حد او طرف او ناصية .

وانه ثانيا قدوة العصاميين المتغلبين على الصعاب والمنتصرين على عوارض اليأس والتخذيل والتثبيط ، وان الكتـاب والادباء العـرب المحدثين ، منذ الحرب العظمى الاولى ، وحتى الوقت الحاضر ، كلهم عيال عليه ومدينون له بهذا التجديد الخلاق والابتداع الحسن فـي مجالات الاداء والتعبير والتجسيد ، حتى لقد وضح ان لكل اسلوبـه وطريقته في تصوير عواطفه وازجاء خطراته ورعشاته ، وصياغة مفاهيمه ونظراته ومعتقداته ، في الكون والحياة والاحياء .

ولولا ترسل طه حسين في العبارة وتدفقه في الاسلوب وطواعيته في الابانه ، وتلقائيته في الافصاح والايضاح ، لظل الكتاب المحدثـون جارين على طريقة القرون الماضية ، ابان عهود التخلف والظلام وانحسار ظلال مدينة السلام ، مترسمين نهجها وما تلزم بـه من التكلف المشين والتصنع العقيم والصناعة الفجة الخالية من الصدق والعفوية .

مهدي العبيدي

الحلة ـ العراق

لا مكان للقمر

شعر عبده بدوي

***

الشعر الحي الذي يلائم روح العصر ، وحياة المجتمع ، هو الذي يقول ما يستحق أن يقال من غير ضجيج أو افتعال . وهناك شعر يقول ما يستحق القول ، ولكن في صخب تنفر منه النفس وينبو عنهالحس، وهذا الشعر لا أرضى عنه ، ولا أميل اليه . وشر منه ذلك الشعر الذي لا يتضمن شيئا ذا خطر ، ثم نرى صاحبه ، من خلاله ، يرفـع عقيرته بالصياح ، وكانه يخطب في حفل عام ! لكن شعر عبده بدوي في ديوانه الجديد « لا مكان للقمر » شعر حي بكل ما في هذه الكلمـة من معنى ، فهو شعر هادف بافكاره ومراميه ، ولكن هدفه ينبع مـن نفس صاحبه في وداعة وهدوء ، أو بمعنى اخر ، فيما يشبه التلقائية ، ولهذا نجد في هذا الشعر ملاءمة صادقة موفقة بين الهدف والتعبير.. انه شعر اليف محبب ، تسمع من خلاله حين تقرؤه همسا موسيقيـا رقيقا يذكرنا بموسيقى الصالونات ، لولا انه شعر هادف يحقق لنـا المتعة والفائدة .. وانت تحس ذلك حين تقرأ هذه المقطوعة من قصيـدة « الباقي أبدا » :

فلتسند ظهرك ، ولتضحك عيناك بأشواق عذبه
ولتجمع حولك خلانا قد جاءوا من ارض الغربه
لا تكسر قلبا ، لا تستمطر جفنا ، لا تزرع غضبه
عرش في الصمت باغنية .. وبقاع النفس اغرس حبه
فانا ساظل هنا كف تلقاك بافراح الاوبه

ونحن نلمس في شعر عبده بدوي الى جانب هذا الهمسالاليف المحبب ، عناية واضحة بالرمز والتصوير . الى الحد الذي يجعلنـا نقول ان شاعرنا يرسم بالكلمات اكثر مما يكتب بها . كما نجد الصور والرموز منبثة في شعره كله بحيث لا تخلو قصيدة من قصائده مـن عنصري الرمز والتصوير.. وهو لا يستمد رموزه وصوره واهدافه ايضا من شاعر او اكثر من شعراء الغرب او الشرق ، كما يفعل بعض الشعراء المعاصرين ، ولكنه يستمدها من عالمه الشخصي ، ومشاعره النفسية ، ويترجم بها عن احساسه العميق بمشكلاته الخاصة ، ومشكـلات مجتمعه ازاء تيارات الحياة المتقلبة ، واعاصيرها الجامحة . وموقف عبده بدوي من الانسان ومن العالم ، موقف الحب والعطاء ، فهو يحب بكل ما في قلبه من رقة ووداعة ، وهو يعطي بكل ما في نفسه مـن طيبة وخير :

اني من عشت تجـاورني ... وكلانا في الماضي فكـره
غنانا الغيب فاصبحنـا ... فـي قلب اغانيه ثـوره
وعلى الامواج تفرقنـا ... والريح تباعدنا جهـرة
لكني توامك البـاكي ... من يفتح في حب صدره

من عاد النور لجبهته   من لامس في عمق فجره
لما ضمتنا في فرح   دار تتوشح بالخضره
دار تحملها أغنية   ونطوف بآفاق حره

وبقدر محبته للانسان والعالم فانه يتألم ويسخط حين يجد المعاني الانسانية وقد غاضت من نفس الانسان ، وماتت في قلب العالم :

العالم أضحى ممتلئا   بجميع تفاهات البشر
فالاعين لا يلفى فيها   خيط لحنان مزدهر
والاوجه قد جفت حتى   أضحت كبقايا من حجر
والقلب هموم ميتة   من نور يأكل في الشعر
والعين زجاج ممقع   لا يجذب شيئا من صور
والماضي رأس قد أضحى   يتأرجح من حول الذكر
والحاضر وهم ألمسه   فيرى كخريف في شجر

ولان شاعرنا يحب المشاعر الوديعة الطيبة ، والناس الودعاء الطيبين ، فاننا نراه يؤثر قريته التي نشأ فيها بالحب ، ويخصها بالحنين ، ويصور الحياة فيها تصويرا رفيقا جميلا ، نجد فيه الفرح الغرير تارة ، والحزن المرير تارة أخرى .. يقول في قصيدة « القرية الخالدة » :

أبصرت بسنبلها الحبا
والخصب يشق له دربا
والبذر يسير بها ونبا
ان يلق الموال العذبا
والنسمة والفجر الرطبا
فالشعب بها حقل لبى
انسان ممتلىء حبا
أطيار . أوراق . قربى
أبصرت بها نكسو ولدى
وتضم لامسي حلو غدى
في قريتنا

وهنا نلمس الفرحة الغريرة بكل ما في القريه من الخير والخصب ، والجمال والحب ، ولكننا نلمس الحزن المرير من أجل الحياة الخشنة التي يحياها الفلاح الطيب المظلوم في قريته التي لم يكن يملك من أمرها شيئا غير أن ينبت لغيره الخصب والثروة ، ثم يحصد لنفسه الفقر والمسغبة : وذلك حيث يقول الشاعر في قصيدته « شارع في الاسكندرية » :

قد جئته من قرية مسكينه
تغفو على أيامها المخشوشنه
الليل في أعماقها لما غفا
هزته أجنحة الفراش اللينه
والفجر تزعجه الفؤوس .. فيرتمي
من خوفه للافق قبل الاونه
والسنبل الذهبي ينمو ضاحكا
في حقلنا .. لكننا لن نطحنه

وهذه اللمسة الاخيرة « لكننا لن نطحنه » هي من أغنى اللمسات الملىء بالحب والاشفاق ، ان يضيق بالمدينة المليئة بضجيج الحياة بالايحاء والتأثير .

ومن الطبيعي ، وقد امتزجت نفس الشاعر بقريته هذا الامتزاج وتحجر الشاعر ، حين اضطرته الظروف الى الحياة فيها ، فيقول في قصيدته السابقة :

حملت قريتي الحزينة في دمي
ومشيت نحو بيوتك المزينه
فوجدت فيها غربة ، ووجدتني
طيرا غريبا ليس يلقى موطنه
فهبطت أعماقي اعاشر بينها
يأسي وخوفي والظنون المزمنه
ووجدتني فوق البشاشة والسنا
كوريقة مصفرة متغضنه
وشعرت اني سوف أسقط .. أنتهي
بين الرياح الثائرات المدجنه

قلنا ان شعر عبده بدوي شعر هادف في روحه وجوهره ، ونزيد هنا ان هذا الشعر الهادف ينساب كما ينساب الجدول الرقيق ، ولا يتدفق تدفق النهر الفياض ، وسر ذلك في رأينا يكمن في نفس الشاعر المليئة بالرقة والوداعة والطيبة ، ومن طبيعة هذه النفس ان تكبح ثورتها في أعماقها ، فلا يظهر منها على السطح الا اثر ضئيل يشبه دخان النار حين يرتفع بعيدا عن دائرة الوهج والاوار ، وشاعرنا يعبر عن هذه النفس حين يقول :

لم أرفع صوتي محتجا   لادين العصر واشواقه
فأنا قد غصت بضجته   ومضيت أعانق أعماقه
وأتوج بالشمس حياة   تتوهج .. تغدو اشراقه
وأمد جناحا مسحورا   والموت يفتح احداقه
واليوم وعمري أصداء   وبقايا حلم رقراقه
ألقاني أسعد انسان   يستنبت من شوك باقه
ويدق على الموت بكف   وبكف يحضن اوراقه

فهنا نجد شعورا هو أقرب الى المرارة منه الى الثورة . واشهد اني ما رأيت عبده بدوي يثور في قسوة وعنف ، ولكني رأيته حين يثور ، يتحدث في مرارة عما يضيق به ويسخط عليه .

وقد ساعد على ظهور طبيعة الانسياب في هذا الشعر ، بحر المتدارك الذي يستغرق معظم قصائد الديوان ، وفي هذا البحر من الانسياب والترجح اكثر مما فيه من التدفق والاندفاع ، لان وحداته الموسيقية (التفعيلات) قصيرة ومتماثلة . ونحن نلمس هذا الانسياب في قصيدته الساخطة « رغم كل شيء » حين يقول :

العالم أولم مائدة   يائسة قد ملئت مقتا
وظنونا تهتز ، وحقدا   وضياعا قد لمس الموتا
فالناس به جزر غرقى   تتهاوى .. لا تسمع صوتا
قد جفوا كالشجر الذاوي   وانهاروا اوراقا شتى

وبهذه المناسبة أسوق الى القارىء احصائية طريفة ، ففي الديوان اثنتان وأربعون قصيدة ، منها سبع وعشرون من بحر المتدارك ، والقصائد الباقية موزعة بين الخفيف(٦) والرجز ومجزوئه (٣) والكامل ومجزوئه (٣) والرمل ومجزوئه (٢) والطويل (١) .

صدر حديثا

ديوان شعر

ثائر وحب

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب

والشاعر يستعمل مجزوء الرجز مذيلا حين يقول :

لا تذكري في فرحة عذراء كالضوء الوليد

وانا استعمله كذلك ، ولكن الشاعرة والناقدة المبدعة السيدة نازك الملائكة لا تستسيغ ذلك بحجة انه لم يرد في شعر العرب . وقد حدثت بيني وبينها مناقشة في هذا الصدد دون ان يقتنع احدنا برأي الاخر ، والذي أراه ان التذييل والترفيل جائزان في الرجز لانهما قد وردا بكثرة في الشعر المعاصر بل في شعر طائفة من الشعراء تمتاز باحساسها الموسيقي المرهف ، ولانهما يمنحان النغم بسطا وامتدادا بحيث يلائم الوانا خاصة من المشاعر والانفعالات ، اما التعلل بعدم ورودهما فيما قالته العرب من بحر الرجز ، فليس ذلك بشيء ، لان المعروف ان ما وصلنا من شعر العرب ليس الا القليل بالنسبة الى ما قالوه من شعر .

وبصفة عامة ، فان الشاعر يميل الى الاوزان القصيرة ، وهذا الميل هو احدى سمات الشعر العربي المعاصر المتجدد .

وفي ختام هذه الكلمة احب ان ابدي بضع ملاحظات لا تغض من الديوان او من صاحبه ، واجملها فيما يلي :

١ ـ ان شعور عبده بدوي بافريقيته شعور قوي عميق حتى ليطغى في ديوانه هذا على شعوره بعروبته !

٢ ـ ان شاعرنا حتى في شعره الملتزم ، يغوص في اعماق النفس اكثر مما يجوب رحاب الكون ، ويصعد الى افاق الوجود .. انه يغني كما يغني العصفور ، اكثر مما يحلق كما تحلق النسور .

٣ ـ شعره العاطفي يكاد يخلو من توهج العاطفة ، وتوقد الانفعال، ولكنه يعوض عن ذلك بالصور الجميلة ، والموسيقى العذبة ، والكلمات الناعمة ، ومشاعر البراءة . والشاعر هنا في حاجة الى ان يخوض تجربة من تجارب الحب العاصف الملتهب ، ليتوهج شعره العاطفي ويتقد .

٤ ـ في قصيدة ((حتى لا يسقط القمر)) ورد هذا البيت :

وغدا في القلب وفي عقل   وبعزم الشعب وفي القدره

وعطف النكرة على المعرفة هنا لا يوجد ما يسوغه ، والتنكير يفيد الافراد ، وذلك يضعف المعنى .

٥ ـ في قصيدة ((ثم يسقط القمر)) بدأ الشاعر بمجزوء الرجز حين قال :

لا تلتفت لبابنا   ان درت حول المنحدر

ثم ختمها بمجزوء الكامل سهوا حين قال :

اني امثل فارسا   متكبرا صلبا عنيد

ومن قصيدة ((رغم كل شيء)) نجد هذا المقطع :

لا شيء له معنى ابدا   في هذا العالم لا شيء

لا شيء له ظل ابدا   قد يلقي بعض الفيء

والبيت الثاني ينقص تفعيلة عن سائر الابيات ، وواضح ان الشاعر لم يكتب قصيدته على نظام الشعر الحر ، ويمكن ان يلتئم البيت مع غيره حين نقوله على هذا النحو :

لا شيء له ظل أبدا قد يلقي فنا بعض الفيء

ولعل الطبعة هي المسؤولة عن ذلك وليس الشاعر ، على اني احب ان اشير هنا الى ان بحر المتدارك كثيرا ما يخون الشعراء ويخدعهم ، فليحذروه حين ينظمون فيه ، وليراجعوا قصائدهم بيتا بيتا .

واخيرا فاني اعتبر عبده بدوي وجها اصيلا مشرقا في شعرنا العربي المعاصر ، وهو شاعر متجدد بافكاره ورموزه وصوره وكلماته وبناء قصائده ، وبموسيقاه التي يلائم بينها وبين روح العصر ، وذوق المعاصرين ، وبما ادخله في شعره من عنصر الدراما الذي يعتمد على المونولوج الداخلي حينا ، وعلى الديالوج حينا اخر .

واشهد اني احب صديقي عبده بدوي واحب شعره ، ولكني اشهد ايضا اني جعلت هذا الحب بمعزل عن رايي في الشاعر ، وفيما يضمه هذا الديوان ؟

ابراهيم محمد نجا

النرجسة

واذا همت نداءات تعرت في سماك
واذا همت .. وضمتها يداك
ستاويك اكف السهد ان غامت لديا
انـا ادري . انها فيك وفيا
غير اني ، حين يحبو الدفء في روحي ظلالا
من رؤاك
تنهض الاغوار في رد الاسار
انـا ادري انه يرهق اعماق الكوى روحا خفيا
ذلك الملعون يحيا في رؤانـا
انـه لا زال يحيا في مرايانـا
زمانـا

***

ذلك المنشد من شوق الى بركة حب
يغزل الاوهام من لون رؤاه
سمت انظارُه انظارَه !
عينه في عينه !
ويداه تورقان الشوق يمتد لمرماها خيال
من مرايا الماء بالشوق يداه
اترى تنكره !
ذلك الناشر للحب شباك
انـه فيك وفيا
اوصد الشوق وما ضمت يداك

***

اترى تفهم ما فينا
خفايانا .. أسانا
يثقل السهد عيون الليل ، لا يثقل عيني
ابدا .. من قال هذي الريح قد تترع لحني ..
اترى تدري باني
حلكة الظلماء مني
يا عناقيد كروم .. سيجت عتبة داري ..
انـا شيء جرحته الريح في يوم بليد
مات في الظل والصيف تراءى
ينشر الاحلام فينا .. في خفايانا حنانا
غيـر انـا ..
نتصداه برعب
ذلك المنشد من شوق الى بركة حب
ذلك الناشر للنفس شباك
انـه فيك وفيا
اوصد الجرح وما ضمت رؤاك

دمشق   **آمال الزهاوي**